

دور الصحافة الوطنية في المقاومة الوطنية ضد سياسة المحتل الاستعمارية:

1- مناهضة الإدماج والتجنيس:

دفاعا عن الهوية الوطنية بشقيها اللغوي والديني، ناهضت الصحافة الوطنية المخططات الإستعمارية الرامية إلى القضاء على كيان الأمة الجزائرية عن طريق الإدماج والتجنيس، على غرار ما فعلته صحافة عبد الحميد بن باديس وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين خلال ثلاثينيات القرن الماضي، حيث احتوت على مقالات وكتابات هامة، دعا كتابها من خلالها الشعب الجزائري إلى ضرورة التمسك بالمقومات الأساسية للشخصية الوطنية، نذكر على سبيل المثال مقال بعنوان (فرنسا) (الشهاب ج 1 م 14 1938) لابن باديس، نقتطف ما جاء فيه مايلي: «... ناهض الشهاب التجنيس والاندماج، وناضل عن الشخصية الإسلامية غير مبال بما يعترضه من المستعمرين آكلة لحوم الأمم، ولا من صراعاتهم من ضعف النفوس، ولا من صنائعهم حزبي الذمم غلاة المستعمرين، حتى أصبحت الأمة اليوم وهي مجمعة بجميع طبقاتها على لزوم المحافظة على شخصيتها وعدم التنازل عن شيء منها ولو حرمت كل حق بيد الظلم والعدوان...»

كما نشر هذا الأخير فتوى تحت عنوان (التجنس والتوبة منه) في جريدة البصائر بتاريخ 14 جانفي 1938، حرم فيها التجنيس واعتبر المجنسين مرتدين عن الإسلام، مما جاء فيها: «التجنس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الإسلام عد مرتدا عن الإسلام بالاجماع، فالمتجنس مرتد بالاجماع. والمتجنس بحكم القانون الفرنسي يجري بتجنسه على نسله، فيكون قد جنى عليهم بإخراجهم من حظيرة الإسلام وتلك الجناية من شر الظلم وأقبح هو إثمها متجدد عليه ما بقي له نسل في الدنيا خارجا عن شريعة الإسلام بسبب جنائته... و من تزوج بامرأة من جنسية غير إسلامية فقد ورط نسله في الخروج من حظيرة الشريعة الإسلامية»

و بدوره المناضل أحمد توفيق المدني كتب في صحيفة الشهاب (م 6، ج 1930، 6)، مبرزا موقفه الرافض للإدماج والتجنيس ومؤكدا على مآلهما الحتمي إلى الفشل، بقوله: «... فسياسة التجنيس والاندماج أخفقت تماما وأفلس كل الإفلاس، وهكذا يخيب ويفلس كل أمر مخالف لسنن الطبيعة وقوانين الاجتماع، فلم يتجنس المتجنس إذا ويقدم على تضحية دينية وقومية؟ اللهم إذا كان يرى دينه منحطا فيريد أن يتبرأ منه ويرى لغته ساقطة فيريد استبدالها بغيرها، ويرى أمته ساقطة فيريد أن يقطع الصلة به وبينه، فهو يصبغ نفسه صبغا خشنا ويحشر نفسه في زمرة قوم ليس منهم وليسوا منهم ولا يغدو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وأمثال هذا الرجل قليل في الجزائر والحمد لله».

كما شنت الصحافة اليقظانية حملات إعلامية ضد التجنيس الإستعماري، وأبرزت مخاطره على الشخصية الوطنية، من خلال مقالات عديدة نشرتها في هذا الصدد، خاصة الممضاة باسم الشيخ أبو اليقظان، مبرهنا من خلالها على جرأته، ووطنيته الصادقة ونزعتة الإسلامية التي لا تشوبها شائبة، و"هجومه الحاد على التجنيس والاندماج وتنديده بالمسخ والتفرنج، ومقاومته الإلحاد والإنفصام عن الشخصية الوطنية، ومؤكدا استحالة الالتقاء بين الشخصية العربية الإسلامية والشخصية الفرنسية المسيحية".

2- التصدي لمخططات التنصير:

لم تكن الصحافة الوطنية غافلة عن نشاط الجمعيات التنصيرية في الجزائر خلال فترة العشرينيات والثلاثينيات القرن 20م، بل تفتنت لدسائسها ومكائدها في استدراج الجزائريين لإدخالهم في الديانة النصرانية بعد تجريدهم من عقيدتهم الإسلامية، وفضحت وشهت بأساليبهم وإغراءاتهم ك تقديم المساعدات الاجتماعية والتعليمية والصحية للفقراء والمساكين والأطفال الأيتام، و قد اضطلعت بهذا الدور الصحافة اليقظانية، من خلال نشرها لمقالات وكتابات كثيرة مستفيضة حول الموضوع، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: "دسائس المبشرين في بلاد الإسلام"، "مسألة التبشير والمبشرين"، "ماذا يريد المبشرين بالمسلمين"، "حركة التبشير في العالم الإسلامي"، "مؤامرات المبشرين ضد شمس الإسلام"، بهدف استنهاض الجزائريين من غفلتهم وتنبيههم للخطر المحدق بعقيدتهم، كان لها أثر فعال في توعيتهم بوجوب الدفاع عن الإسلام والتمسك به باعتباره مقوم أساسي للشخصية الوطنية.

الأمر الذي أدى إلى سخط المنصرين على صاحبها، و تضيق الإدارة الإستعمارية على نشاطه الصحفي، و تعطيل جميع صحفه الصادرة خلال فترة(1926-1938) ، ومداومة مطبعته العربية، وتفتيشها بحثا عن كتابات الصحفي الفرقد(سليمان يحي بوجناح) الفاضحة لأعمال الجمعيات التنصيرية، كما تعرض منزل أبواليقظان بغرداية، والشاعر مفدي زكرياء ببني يزغن للتفتيش، و ذلك محاولة من المحتل إرهابهما نفسيا للحيلولة دون استمرارهما في نضالهم الوطني التحرري، لكنه فشل في اعتقاده هذا، من خلال استماتة أبو اليقظان في جهاده الإعلامي دفاعا عن القضايا الوطنية خاصة وقضايا الأمة الإسلامية عامة إلى غاية إندلاع ثورة 1954.

3- الدفاع عن الهوية الوطنية:

انبرت الصحافة الوطنية للدفاع عن اللغة العربية التي استهدفت من طرف سياسة المحتل منذ سقوط الجزائر سنة 1830، و هذا باعتبارها مكون أساسي لهوية الشعب الجزائري الوطنية، فالقضاء عليها يساعد على تجسيد مشروع المسخ الإستعماري الحضاري للجزائر ودمجها في الكيان الفرنسي، لذلك لم تتردد الإدارة الاستعمارية في جعل العربية لغة أجنبية ميتة، و اعتبار الفرنسية اللغة الرسمية للبلاد، وحاربت كل العوامل التي تساعد على تطوير وانتشار اللغة العربية في عقر دارها كالتعليم العربي الحر، والصحافة الوطنية المكتوبة باللغة العربية والكتاتيب القرآنية وغيرها... فقامت الصحافة الوطنية بالتصدي للسياسة فرنسا الاستعمارية في هذا المجال، من خلال مقالاتها التي غلب عليها أسلوب الخطابة بهدف الهاب الحماس الوطني في نفسية الشعب الوطني ودفعها للذود عن لغته ومن ثمة مقاومة سياسة فرنسا. و نذكر في هذا الصدد كتابات عبد الحميد بن باديس(الشهاب م15، ج1939، 07) التي دافع من خلالها باستماتة عن اللغة العربية، نقطف ما جاء في إحداها، قوله: «إنني أعاهدكم على أنني اقضي بياضي على العربية والإسلام، كما قضيت سوادي عليهما، إنها لواجبات... و إنني سأقصر حياتي على الإسلام والقرآن، ولغة الإسلام والقرآن، هذا عهدي لكم، و أطلب منكم شيئا واحدا وهو ان تموتوا على الإسلام والقرآن ولغة الإسلام والقرآن...»

و في مقال آخر كتبه المناضل أحمد توفيق المدني تحت عنوان ((بين الموت والحياة)) في مجلة الشهاب سنة 1930، حذر فيه من المتربصين باللغة العربية، و داعيا في نفس الوقت إلى ضرورة الدفاع عنها والتمسك بها حفاظا على الذات الجزائرية، نقطف ما جاء في هذا المقال، قوله: «... إننا الآن في منعطف صعب من تاريخ حياتنا القومية.... طريقان قد فتحا اليوم في وجه الجزائر الفتاة، وعلى رأس كل من الطريقين جماعة ترغب الناس سلوك ذلك الطريق وتعددهم الوعود وتمدلهم في الأمان. أما

الطريق الأول، فهو طريق التجنيس، والتنازل عن القومية واللغة ونبذ التاريخ والتقاليد والدخول في جنسية جديدة من جنسية العنصر الغالب والاندماج فيها وقبول ما يتبع ذلك التجنس والاندماج من أخلاق جديدة ولغة جديدة وعقلية جديدة، ودعاة هذا الطريق يبثون دعوتهم بجد ونشاط، ويكتبون ويخطبون ويحدثون وينشرون الصحف والمجلات باللغة الفرنسية طبعاً، ويريدون أن يؤثروا على الطبقات المتعلمة في المدارس الفرنسية والمتشعبة بالأفكار الفرنسية.

أما الطريق الثاني، فهو طريق المحافظة على الذات الجزائرية، أي المحافظة على دين البلاد وعلى لغتها وعلى تقاليدها وعلى مدنياتها الخاصة وعلى توثيق الرابطة بين حاضرها وبين تاريخها المجيد والخذ من ثمرات المدنية الغربية بكل نافع مفيد لا يمس العقيدة الدينية والوطنية ولا يتعدى على كرامة البلاد، ولهذا الطريق أنصاره حتى بين طبقة الشبيبة المتعلمة في المدارس الفرنسية...» (الشهاب، م06، ج06، مارس 1930).

و يؤكد الكاتب في الأخير بأن سياسة المحتل في النيل من اللغة العربية ستمنى بالفشل لا محالة: «...هل يمكن الشعب الجزائري العربي المسلم أن يصبح شعباً فرنسياً خالصاً في أدابه ولغته وتقاليد عواده ويتخلص ولو في عدة قرون من دمه الخالص ومن كل مميزاته ووراثته؟ إن ذلك هو عين المستحيل...» (الشهاب نفس المصدر)

نفس الموقف المشرف أبدته الصحافة اليقظانية من اللغة العربية، بحيث دعت إلى التمسك بها والدفاع عنها، وتطويرها، والاقبال على تعلمها باعتبارها لغة القرآن، ومقوم أساسي للشخصية الجزائرية، وبذلك تتبوأ الأمة الجزائرية ذروة العز والكرامة على حد تعبير جريدة وادي ميزاب (ع110، 1928).

وفي صدد دفاعها عن المقومات الأساسية للشخصية الوطنية الجزائرية، ناضلت الصحافة الوطنية في سبيل نصر الدين الإسلامي، حيث تصدرت لحملات التنصير، والإلحاد، وأفكار الطرقية الضالة، وانتقدت الإدارة الإستعمارية على تدخلها في الشؤون الدينية الإسلامية للجزائريين، وطالبت بفصل الدين الإسلامي عن الدولة الفرنسية على غرار ما فعلته مع الديانتين المسيحية واليهودية بموجب المرسوم الصادر بتاريخ 1907/09/27، وقد لقي هذا الموضوع اهتماماً منقطع النظير من طرف الصحافة اليقظانية، وشهاب ابن باديس، وبصائر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومنار محمود بوزوز.

4-نشر قيم الوطنية والحرية:

عملت الصحافة الوطنية على تقوية الوعي الوطني لدى الشعب الجزائري، وغرس روح المقاومة الوطنية في نفسه عن طريق نشر قيم الوطنية في أوساطه مثل الإعتزاز بالوطن، و الافتخار بالانتماء إليه، والتضحية في سبيله، والتأكيد على خصوصياته المتميزة عن وطن المحتل جغرافياً ودينياً وحضارياً وتاريخياً، ودعوتها للوحدة الوطنية لمجابهة مخططات العدو المستهدفة لوحدة الشعب الجزائري الوطنية (أنظر على سبيل المثال جريدة وادي ميزاب ع1، 1926). واهتمت كذلك بنشر قيم الحرية من خلال دعوتها للتحرر، فقد كتب في هذا الصدد الشيخ أبو اليقظان قائلاً: «... إن الحرية جزء برأسه لا

يتجزأ فإما أن يكون كله أو يذهب كله، و هي بطبيعتها تؤخذ و لا تعطى شأن الشيء الغالي الثمين، هذا ما دلنا عليه تاريخ نهضات الأمم و لعله يأتينا زمان يخرم هذه القاعدة، فتتال فيه الحرية بالتسول و الاستجداء و الإغراء في النوم و الجري وراء الملذات و الشهوات فان الدهر أبو العجائب...» (وادي ميززاب ع1927/26)

وبدوره الشيخ عبد الحميد بن باديس دافع عن الاستقلال، بقوله: «... إن الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من امم الدنيا، و قد استقلت أمم كانت دوننا في القوة و العلم و المنعة و الحضارة، و لسنا من الذين يدعون الغيب مع الله و يقولون غن حالة الجزائر ستدوم إلى الأبد، فكما تقلبت الجزائر مع التاريخ، فمن الممكن أنها تزداد تقلبا مع التاريخ...» (الشهاب م12، ج1936، 3). و جاء في افتتاحية جريدة البصائر سنة 1948: «... فالاستقلال من الضروريات الطبيعية الحيوية للأفراد و للشعوب و لهذا يعد حقا من الحقوق المقدسة التي يتفق العقلاء على اعتبارها، و التي يعد التاريخ الموت في سبيلها شرفا عظيما...»

كما شجبت الصحافة الوطنية الاستعمار الغربي بأشكاله المختلفة لاسيما في العالم الإسلامي و العربي، و نددت بالغزو الصهيوني لفلسطين، وساندت الحركات التحررية العربية، و قد عكست بذلك "مدى وضوح الرؤية لدى صحافة الجزائر الوطنية، ومدى وعيها لترابط نضال الشعب الجزائري مع كل شعوب الوطن العربي ضد الإستعمار بكل وجوهه وأشكاله"، و في هذا الصدد أشاد الأستاذ الجزائري عبد المالك مرتاض بالدور النضالي لهذه الصحافة في سبيل الحرية، بقوله: " فقد كانت صحافتنا بالأمس تناضل من أجل حرية التفكير والتعبير، كما كانت تناضل من أجل تغيير الواقع الاستعماري المشؤوم".

وأمام هذا الدور النضالي الوطني التحرري الذي أصبحت تؤديه هذه الصحافة لم تتردد الإدارة الاستعمارية في كتم أنفاسها والزج بأصحابها وكتابها في السجون، لكن ذلك لم ينل من عزيمة هذه الصحافة في مواصلة نضالها الوطني، "و كانت بمثابة جذوة لإشعال نار الثورة، كما أن المبادئ التي كانت تنادي بها وتناضل من أجلها، كانت تمثل المنطلق الحتمي لإرهاصات ثورية، لم تلبث أن اضطربت نارها في نوفمبر 1954".